الأمكنة في أشعار الثالوث الأمويّ من العلميّة إلى الاعتمال الإنشائيّ

أ.الجداري عمارة، جامعة سوسة/تونس

ملخص:

نَعْنِي باسم المكان العلم الموضع الذي يشكّل مدلوله حيّزا جغرافيّا معلوما تاريخيّا. وهذا النوع من الأسماء متواتر في النصوص الشعريّة. ولئن كان اهتمام الدرس النقديّ به واضحا وجليّا فإنّ الوظيفة الإنشائيّة للمكان العلم في تفاعله مع أقسام القصيدة مازال مغريا بالبحث والدراسة. فخصصنا هذا المقال للبحث في اعتماله الإنشائي من خلال نماذج من نصوص الثالوث الأموي.

الكلمات المفاتيح: الشعر القديم – المكان العلم – الاعتمال الإنشائي

Abstract : By proper noun we mean the locality whose significance suggest represents a historically known space. This kind of nouns is very frequent in poetry. Though it gained much heed by critics. The constructivist role of the proper noun in its interaction with the poem parts is still luring for further scrutiny.

Thus we dedicate this paper to explore its constructivist processing through samples of the Omayyad tripartite.

Key words: Arabic poetry - actual lieu - poetic form

تمهيد:

لا يتنزّل المكان في النصّ الشعريّ باعتباره عنصرا لغويّا إنّما يكْشف عن اعتمال إنشائيّ شعريّ مميّز. ونرمي بالاعتمال الإنشائيّ إلى ما يمكن أنْ تقصده اللغة من فعل اعتمل فيجمل ابن منظور قوله[1]"**واعْتَمَل الرجلُ عَمِلَ بنفسه(...) وقيل العَمَلُ لغيره والاعْتِمالُ لنفسه(...) والاعْتمال افتعال من العَمَل**" فكانت قراءتنا المعجميّة دافعة إلى اعتماد لفظة الاعتمال للدلالة على ما ينهض به المكان من وظيفة إنشائيّة

في النصّ الشعريّ وفق تشكّله الدلاليّ والبنيوي. ولذلك سنحاول توظيف هذه اللفظة نقديا للبحث في حضور المكان وطرق نهوضه بالبعد الإنشائيّ في النصّ الشعريّ وسنختار نماذج شعريّة من دواوين الثالوث الأموي الفرزدق والأخطل وجرير.

وسنستعين في مقاربة الاعتمال الإنشائي للمكان العلم بحضوره في أقسام القصيدة المعروفة وبنيتها الفنّيّة والإيقاعيّة والغرضيّة وصورها ومواضيعها مع مقاربة تشكّلاته التعبيريّة وتوسّلاته الفنّيّة.

والمكان عند أهل اللغة الموضع[2] ووزنه مفعل[3] وجمعه أمكنة وأماكن[4] وأجراه البعض على فعال[5]. ولئن تراوحت رؤى اللغويين بين الاتفاق والاختلاف في مقاربة المكان لغويّا فإن الدرس النقدي الأدبيّ قد قاربه من رؤى متعدّدة.

فقد بلغت عناية الدرس النقديّ بالمكان قديما وحديثا عربيّا وغرْبيّا شأوا مهمّا. لكنّ هذه العناية ظلّت تشوبها بعض الإشكالات. وسنحاول في هذا القسم الوقوف على جردٍ نقديٍّ لجملة من الدراسات النقديّة للكشف عمّا يشوبها من ملابسات.

وقد تعامل الدرس النقدي العربي القديم مع المكان في النص الشعريّ من وجهات مختلفة تنوّعت مجالاتها لغويّا وجغرافيّا وأدبيّا صرْفًا.

1- الرؤية اللغويّة والمكان: قاربت الرؤية اللغويّة المكان واعتنت به باعتباره اسما دالاّ على مكان وقوع المعنى الذي دلّ عليْه هذا الاسم وباعتباره ظرفا مبهما يدلّ في سياق الإفادة النحويّة للجملة على معنى المكانيّة أو المكان الذي يقع فيه الحدث. ولئنْ كانت هذه القراءة اللغويّة قد اعتنت بالمكان بمعزل عن النصّ فإنّها قد جعلته أساسا نظريّا للتواصل[(6)].

2- الرؤية الجغرافية: كانت الرؤية الجغرافيّة[(7)] على خلاف الرؤية اللغويّة أقرب إلى النصّ الشعريّ فبعض المؤلّفات النقديّة العربيّة القديمة التي اعتنت بالمكان قد تنقّبت

المدوّنات الشعريّة للبحث عن الدلالات المكانيّة والبحث لها عن أساس واقعيّ وقد كانت هذه القراءات تشوبها عديد النقائص للبعد الفاصل بين الأساس الجغرافيّ والواقعيّ لاسم المكان والبعد الإنشائيّ للنصّ الشعريّ.

ولئن كشفت هذه القراءة عن مادّة شعريّة غزيرة فإنّها بقيت رؤية نقديّة غير واضحة مؤثّرة في النصّ تأثيرا سلبيّا تجمّد ما يضفيه من أبعاد إنشائيّة وتخييليّة. وتحصر التعامل معه باعتباره أساسا جغرافيّا علميّا وتركّز على تعداد المواضع والأماكن وهو ما يكشف عن مسافات فاصلة بين ما يحقّقه الشعر وما ترمي إليه المؤلّفات الجغرافيّة الدارسة للنصّ الشعريّ.

3- الرؤية النقديّة الأدبيّة والمكان: لم تولِ الرؤية النقديّة الأدبيّة القديمة المكان أهمّيّة بالغة ولم تعتنِ به باعتباره عنصرا رئيسا في مباحثها. لكنّ ذلك لا يخفي وجود علامات نقديّة متعلّقة بالمكان في علاقته بالنصّ الشعريّ. فكان الدرس النقديّ الأدبيّ القديم يقارب المكان لا في النصّ الشعريّ إنّما في تأثيره في إنشاء النصّ الشعريّ. فارتبط المكان بعوالم خارجة عن النصّ الأدبيّ سواء باعتباره عنصرا مؤثّرا في حياة الشعراء[(8)] أو في لغتهم[(9)] أو في إبداعهم[(10)]. لكنّ بعض الشذرات النقديّة المتعلّقة بالمكان يمكن أن نستشفّها من القراءات الباحثة في بناء القصيدة وتشكيل صورها ولغتها. وقد اعتبر حضور المكان سبيلا لرصد قدرة الشاعر وإعجازه وحدودهما[(11)].

ويدفعنا ذلك إلى الإقرار بأنّ المكان في الدراسات النقديّة العربيّة القديمة لمْ يكن علامة نقديّة مميّزة، بل كان الحديث عنه في ثنايا مباحث مختلفة، ولعلّ ذلك يُردُّ إلى حداثة الوعي بهذا المبحث. فالدرسات النقديّة العربيّة لم تهتمّ بالمكان اهتماما مباشرا إلاّ في فترات زمنيّة متأخّرة مع التجارب النقديّة الحديثة.

1- المكان في الدرس النقدي الحديث: كان النقد العربيّ الحديث يتعامل مع المكان باعتباره عنصرا رئيسا في النصّ الأدبيّ روايةً أو شعرا. وقد كانت العناية به نابعة من مستويْين مختلفيْن، يتمثّل الأوّل في الإحساس بالمكان ويتمثّل الثاني في تأثير الفضاء الخارجيّ والوسط الطبيعيّ في الذات المبدعة. وتعدّدت الدراسات المتعلّقة بالمكان باعتباره عنصرا موصوفا مؤثّرا في حياة الجاهليّ[12] أو باعتباره عنصرا إشكاليّا[13] أو باعتباره سبيلا للكشف عن المستويات الفنّيّة التي تنهض ببناء الصورة ولغتها ومجازاتها[14] أو باعتباره فضاءً متخيّلا[15] يقوّض المسافة الفاصلة بين الخياليّ المنجز بالنصّ والواقعيّ المادّيّ، أو باعتباره علامة دينيّة مؤثّرة في النصّ ومبدعه ومتقبّله[16]، أو باعتباره فضاءً شعريّا يكشف عن علاقة المكان بالذات الإنشائيّة للنصّ[17]، أو باعتباره وسيلة تعبيريّة يروم بها الشاعر تجنّب الإسهاب والإطناب ساعيا إلى تحقيق التأثير في المتلقّي باعتباره فضاءً موصوفا يعكس وظائف بلاغيّة ولغويّة متنوّعة[18]...

ورغم تنوّع هذه القراءات المتناولة للمكان فإنّها ظلّت مرتبطة بمقولات نقديّة غربيّة. فكان الدرس النقدي العربيّ الحديث ينسخها مهملا العناية بالمادّة الشعريّة الغنيّة بالحضور المكانيّ باعتبارها تفاعلا إنشائيّا فريدا يصنع مقولاته من اللغة.

- المكان في الدرس النقدي الغربيّ:

كان الدرس النقديّ الغربيّ مُلهما وكان أكثر اهتماما بالمكان إذْ بلغت الدراسات النقديّة المهتمّة بالمكان شأوا مهمّا. واعتنت بوظيفة المكان في النصّ الأدبيّ ومختلف تشكّلاته وتوسّلاته وانطلقت في مباشرة الحضور المكانيّ من مستويات متنوّعة مثل المستوى الأسطوريّ. فكان لها السبق في إثارة مسائل متنوّعة على غاية من الأهمّيّة

كانت تمثّل أساسا نظريّا لدارسي الأعمال الأدبيّة. وكان لها التأثير البالغ في الأعمال النقديّة العربيّة.

لكنّ هذا الاهتمام بالمكان ظلّ مركّزا على الأعمال الروائيّة أكثر من الأعمال الشعريّة.

وتعود الدراسات المعتنية بالمكان إلى قراءات جماليّة صرفة شأن ما دأب عليه باشلار[19] الذي اهتمّ بدراسة القيم الرمزيّة المرتبطة بالمناظر التي تتاح للشخصيّات سواء في أماكن إقامتهم مثل البيت والغرف المغلقة أو في الأماكن المنفتحة الخفيّة أوالظاهرة المركزيّة والهامشيّة. وانطلق في هذا الاهتمام من مسألة **[أحلام اليقظة]**. وكان لهذه الدراسة أثرها في الأعمال النقديّة الأدبيّة اللاحقة[20].

وتنوّعت المداخل لدراسة المكان لكنّها ظلت رؤيات محدّدة مسبقا. فكان المدخل محدّدا لنوعيّة الدراسة. فقد ارتبط المكان بالهويّة في أعمال لارتيلو فرانسواز[Lartillot Francoise][21]، لكنّ هذه الهويّة ما هي إلاّ هويّة إنشائيّة وقد توسّلت الباحثة بخطاب مجازيّ واستعاريّ إيحائيّ، وإنْ لمْ يُدْرَسْ المكان في ذاته إنّما من جهة الذات الإبداعيّة وكيفيّة رؤيتها للمكان وتعاملها معه تعاملا يُحدّد موقعها وقراءتها وتفاعلها وانسجامها معه.

وكانت الجماليّة الإنشائيّة سبيلا إلى رصد التفكير الإنشائيّ عند إيف بونفوي[Yves Bonnefoy]. فكان المكان عنصرا رئيسا يحمل مستويات إشكاليّة متنوّعة بل أُعْتُبِرَ في ذاته عنصرا إشكاليّا[22].

لكنّ أعمال جون مارك جيتي[Jean Marc Ghitti][23] كانت أعمق، فلئنْ لم تعتن بالمكان في ذاته فإنّها قدْ تناولت المكان في علاقته بالخطاب من خلال الأعمال

الأدبيّة لأندريه مالرو[André Malraux] وقد توسّل الكاتب بتجربة المتاحف وتجربة الأمكنة من خلال مدينة الجيزة وإله الشمس...

وقد تجاوز الاهتمام بالمكان علاقته بالخطاب إلى اعتباره سلطة متحكّمة في العلاقات الإنسانيّة والاجتماعيّة من خلال كتاب كلافيل بول[Paul Claval](24). ورغم أنّ للمكان أهمّيّة بالغة تتشكّل من خلال أثر المكان وسلطانه على المجتمع والإنسان والمجموعة بصفة عامّة فإنّ الباحث قد أهمل كل الإحساسات التي من الممكن أنْ يتعامل معها الإنسان تجاه المكان بل ظلّ المكان عنْصرا مستبدّا يجمّدُ كلّ إحساس بالانتماء وينفي كلّ الأبعاد التخييليّة. وهو ما دأب على إثباته العديد من النقّاد مستثمرين ما ذهب إليْه باشلار[Gaston Bachelard] من أحلام اليقظة(25) فتعاملوا مع المكان باعتباره مُتَصَوّرًا يتجاذبه طرفا التنظيم والحلم. وقد أُجْمِلَتْ هذه الأفكار في كتاب جاك ماسبيو بيزي[Jaque pezeu Massabiau](26) الذي توسّل بالبيت مكانا يكشف عن مستويات نفسيّة تتعلّق بتصوّره من جانب، وفضاءً يمثّل الحلم من جانب ثان، ومجالا منظّما من جانب ثالث. فكان البيت مكانا يمثّل الغطاء والحماية للذات، ويحتمل الحلم باحتواء ذواتنا. فتنزّل واصلا بين الذات والعالم الخارجي ينظّم حمايتها ويفتح لها أبواب الحلم. واكتسب أبعادا ثلاثة مهمّة، فهو يوفّر الحماية لساكنه، ويصله بالعالم الخارجيّ، ويبعث فيه الحلم والذاكرة. ولعلّ قيمة هذا العمل النقديّ تكمن في إكساب التحليل الأدبيّ مجالات جديدة تتجاوز اعتباره جزْءًا من شموليّة النظرة الأدبيّة التي ذهب منحاها موريس بلانشو[Maurice Blanchot](27) في دراسته الفضاء الأدبيّ.

ولعلّ هذه النظرة قدْ تكتسب دلالات جديدة مع قراءة السيميائيّين إذ كانوا يعتبرون بنية الأمكنة الشعريّة ما هي إلاّ نمذجة للمكان الخارجيّ(28) لكنّ الأهمّيّة ليست في

العلاقة بالواقع الخارجيّ إنّما في تشكّله في النصّ الأدبيّ لذلك ذهب المنظّر السوفياتي لوتمان[Lotman][29] إلى تنزيل مشكلة الفضاء ضمن المكوّنات اللغويّة للعمل الفنّيّ. فكان يعتبر أنّ البنيات المكانيّة ما هي إلاّ أحد الأنساق التي يقوم عليها النصّ الأدبيّ فهي تمثّل نموذجا لبنية الأمكنة الواقعيّة وتكتسب دلالة عميقة عنْد وضعها في مقابلة مع بقيّة الأنساق المكوّنة للنصّ الأدبيّ مثْل الزمان والماء والحيوان، أوْ لغيْره من العوالم المجاورة له مثل الواقع الجغرافيّ والاجتماعيّ والنفسيّ. فتجلّت أهمّيّة المنظومة المكانيّة –حسب لوتمان– عنْصرا منسّقا يضيء بقيّة مكوّنات القصيدة أوْ تتشكّل حوله العناصر اللامكانيّة للنصّ الأدبيّ[30].

إنّ المقاربات النقديّة لدراسة المكان تكشف عن أحكام تتنزّل في أحايين كثيرة غريبة عن النصّ الشعريّ القديم مسقطة عليْه. فكانت القراءة غيْر واعية بالنص وملابساته.

ولعلّ مقاربة النصوص الشعريّة القديمة ومتابعة حضور الأمكنة فيها والوقوف على تشكّلها يمْكن أنْ ترفع الغموض عنْ بعض الصور والموضوعات وتكشف عن الأبعاد والوظائف التي تقوم بها هذه الأماكن في سياق أو موضوع أو غرض شعريّ معيّن.

2– الاعتمال الإنشائي للمكان العلم في النص الشعري:

يحضر المكان العلم في النصوص الشعريّة حضورا لافتا. لكنّ هذا الحضور يحمل إشكالات متنوّعة تتعلّق بأهمّيته الواقعيّة وأهمّيّته النصّيّة ومدى التلازم بينهما والجدليّة التي يحدثها المستويان. والوقوف على هذه الجدلية والخوض فيها لا يمكن أنْ يُدْرك إلاّ من خلال مقاربتنا للنصوص لأنّ النصّ في ذاته هو السبيل الوحيد الذي من الممكن أن يكشف عن كيفيّة اشتغال المكان العلم وطرق تشكّله.

وكان المكان العلم حاضرا في مختلف أقسام القصيدة (القسم الطلليّ وقسم الرحلة وقسم النسيب...) وفي مختلف الأغراض (المدح والفخر والهجاء والرثاء...) وفي شتّى المواضيع...

وهذا الحضور اللافت فضلا على تنوّع الدلالات والمعاني فيه، يجعل المكان العلم حريّا بالبحث والدراسة وفق ما تنهض عليْه من أقسام متعارف عليها تحظى بإجماع الدرس النقديّ القديم. وسنحاول من خلال هذه المقاربة تبيّن كيفيّة اعتمال المكان العلم وتشكّله في النصّ الشعريّ وكيفيّة إسهامه في إنشائيّته.

ونعتمد مدوّنة شعريّة تستحضر في بناء نصوصها المقاييس التي ضبطتها المدوّنة النقديّة القديمة. فكانت هذه النصوص تمثّل السلطان النموذج الذي يمكن أنْ يمثّل رمز الهداية والاتّباع عند الشعراء. وقد حافظ بعض شعراء القرن الأوّل على مستويات هذه السنّة ونستدلّ على ذلك ببعض نصوص الثالوث الأموي الفرزدق[31] والأخطل[32] وجرير[33].

وسنتوسّل في معرفة حضور المكان العلم وطرق تشكّله واعتماله بالقسميْن الشهيريْن الأوّليْن في القصيدة وهما القسم الطلليّ وقسم وصف رحلة الظعائن باعتبارهما أكثر الأقسام استدعاءً للمكان العلم.

أ–الاعتمال الإنشائي للمكان العلم في القسم الطلليّ:

يُعدّ القسم الطلليّ في القصيدة القديمة استهلالا يقف فيه الشاعر على آثار الحبيبة ذاكرا الديار باكيا شاكيا... فكان هذا القسم من القصيدة يهزّ مشاعر الذات الشاعرة والذات المتقبّلة. وكان على أهمّيّته يصوغه الشاعر متوسّلا بالتجربة الأدبيّة في ما يتّبعه من آداب السنّة الشعريّة وبالتجربة المعيشة وبما يسعى إلى ارتسامه في ذهن

المتقبّل من جزئيّات مألوفة مثل الأثافي والرماد والمناخ... وتشكيلها تشكيلا فنّيا مقنعا ومؤثّرا.

وفي هذا التشكّل يتنزّل المكان العلم ليسهم في صياغة هذا القسم صياغة إنشائيّة فريدة. فنهض المكان العلم في الطلل بأبعاد دلاليّة متنوّعة فأضفى على الطلل إثباتا ضدّ العوامل الطبيعيّة رياحا وأمطارا وضدّ الاحتمال والوهم وضدّ البلاء والامّحال.

- وقوف المكان العلم ضد عوامل الطبيعة:

كثيرا ما يتنزّل المكان العلم ليثبت الطلل أمام فعل العوامل الطبيعيّة بشتّى صروفها. ويمكن أنْ يتجلّى ذلك في عديد الشواهد الشعريّة مثل قوْل الفرزدق [من الكامل][(34)]:

"**أَعَرَفْتَ بَيْنَ رُوِيّتيْن وَحَنْبَلِ** ** * * * ** **دِمَنًا تَلُوحُ كَأنّهَا أَسْطَارُ**

لَعِبَ الريَاحُ بِكُلّ مَنْزِلَةٍ لَـهَا ** * * * ** **وَمَلثّة غَيْثَاتُهَا مِدْرَارُ**"

فالشاعر يحتار ويبدي ذهوله وهو يقف على الديار التي هجرها أهلها وأثّرت في معالمها الريح والمطر فشبّه هذه الدمن بالأسطار لبيان فعل الطبيعة ريحا وأمطارا فيها. ويستدعي في هذا الوصف موضعين/مكانين علمين **[رويّة]** و**[حنبل]** وجعل هذه الدمن **[تلوح]** بما يحمله فعل لاح من صعوبة التحديد. فوجد الشاعر في المكانيْن العلميْن وسيلة تقابل هذه الصعوبة فرفع عنها الحجب. فالدمن قد تنزّلت بيْن وصفيْن، وصف أوّل يدقّق تحديدها بظرف بيْن مكانيْن علميْن، ووصف ثان يكسبها جانبا من الغموض. ويمكن أن نمثّل ذلك بالرسم التالي:

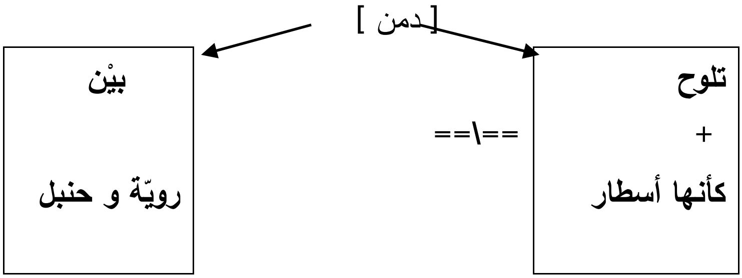

إنّ أهمّيّة المكانيْن العلميْن **[رويّة]** و**[حنبل]** تتمثّل في ما يمكن أنْ تنهض به من رفع حال الغموض التي غطّت الدمن. فكأنّ المكان العلم قد وقف أمام عوامل الطبيعة ليوحي بإثبات هذه الدمن.

ويبْدو الطلل الذي تؤثّر فيه الرياح والأمْطار يطْلب الشاعر تحيّته. لكنّ الطلل المُحيَّى يحتاج إلى إثبات أمام فعل عوامل الطبيعة كما يتجلّى في المطلع الطلليّ لقصيدة يمدح فيها جريرُ الوليدَ بنَ عبد الملك ويذكر هدم الكنيسة قائلا [من الكامل][35]:

"حَيِّ الدِيَار بِعَاقِلٍ فَالأنْعُمِ * كَالوَحْيِ فِي وَرَقِ الزبُورِ المُعْجَمِ**

طَلَلٌ تُجَرِّبُهُ الرياحُ سَوَارِيَا * وَالمُدْجَنَاتُ مِنَ الشمَالِ المِرْزَم"**

فيقف على الطلل وقفة مخصوصة مرتبطة بتحيّة الديار التي يشبّهها بما كُتب وأُعْجم تنقيطا وحركة حتّى أُزِيلَتْ عُجْمَتُهُ. وفي ثنايا التحيّة والتشبيه يتنزّل المكانان العلمان **[عاقل]** وهو واد لبني أبان بن دارم[36] و**[الأنعم]** موقع بالعالية[37]. فكانا حامليْن لوظيفة إنشائيّة تجلّت في تشكيل طلل يتجاذبه طرفا العدم والوجود. وتمثّل العدم في تشبيهه بالوحي وفي فعل الرياح والسحاب المرعد (المرزم) الممطر (المدجنة) ليل نهار وتمثّل الوجود في الإثبات بالإيحاء بمكان علم. وبين الطرفين يتشكّل طلب القيام بفعل التحيّة. لكنّ التحيّة لا تكون لمكان معدوم متأثّر بظروف طبيعيّة متنوّعة

وفاعلة، إنّما لمكان ثابت يرتبط بمكان يوحي بالعلميّة. فكانت قيمة المكان العلم في إثباته المكان الموصوف وإيحائه الإنشائيّ والدلالي.

ويتنزّل الطلل مكانا معلوما معروفا رغم ما فعلته الرياح والأمطار بفضل ما نهض به المكان العلم مثل المطلع الطلليّ للقصيدة التي يهجو فيها جرير الأخطلَ في قوله[من الوافر](38):

"عَرَفْتَ بِبرقَة الوداء رسْمًـا * مُحِيلا طالَ عَهْدُكَ مِنْ رُسُومِ**

عَفَا الرسْمُ المُحِيلُ بِذِي العَلَنْدَى * مَسَاحِجُ كُلّ مُرْتَجِزٍ هَزِيـم**

فيقف على الأطلال وقفة يعرّف من خلالها رسما يشي دلاليّا بصعوبة معرفته فهو رسم بال تسحجه الأمطار الرعديّة بشدّة. ويكرّر صفة المحيل مرّتيْن للدلالة على بلاء الرسم لكنّ التناقض بيْن فعل **[المعرفة/عرفت]** وصِفَةِ امتداده الزمنيّ **[حولا كاملا]** يجعل الشاعر يستدعي المكان العلم ليؤكّد فعل المعرفة. فجعل المكان بذلك مقابلا لحركتين في النصّ تتمثّل الحركة الأولى في صفة الامتداد الزمني فقد مضى عليْه حول كامل وعُبِّر عنها مرّتيْن **[محيلا-المحيل]** وتتمثّل الحركة الثانية في ما فعلته الأمطار الرعديّة في الرسم **[مساحج كلّ مرتجز هزيم]**. فكان المكان العلم حاملا لوظيفته اللغويّة من جانب والوظيفة الدلاليّة من جانب ثانٍ.

ويكون المكان متأثّرا بالامتداد الزمني والظروف الطبيعيّة ممّا يضفي عليه جانبا من قلّة الوضوح فيستدعي الشاعر المكان العلم كما في قول الأخطل [من الطويل]**(39)**:

"أَتَعْرِفُ مِنْ أَسْمَاءَ بِالجدّ رَسْمًا * مُحِيلا وَنُؤْيًا دَارِسًا قَدْ تَهَدَّمَا؟**

وَمَوْضِعَ أَحْطَابٍ تَحَمّلَ أَهْلُـهُ * وَمَوْقِدَ نَارٍ كَالحَمَامَةِ أَسْحَمَا**

عَلَى آجِنٍ أَبْقَتْ لَهُ الريحُ دِمْـنَةً * وَحوْضًا كَأَدْحِيّ النَعَامَةِ أَثْلَمَا"**

يطرح الشاعر سؤال معرفة طلل أسماء ويجعل لهذا الطلل صفات متعدّدة، فهو طلل قد مرّ عليه حول[**محيلا**]، دارس متهدّم لم يبْق منه إلاّ نؤي وماء آسن تقادم عهده. فكان الطلل بهذه الصفات صعب التحديد فألحقه الشاعر بموضع علم يدفع عنه هذه الصفات. فكان المكان العلم **[الجد]** ويسمه ياقوت في معجمه بجدّ الموالي[40] مكانا يثبت من خلاله الشاعر بقاء هذا الطلل موْجودا. وبوجوده يكون مستجيبا لسؤال المعرفة **[أتعرف]**. فكان الخطاب يمرّ بثلاثة أطوار:

(سؤال المعرفة + مكان علم + طلل متهدّم دارس محيل).

وكانت هذه الأطوار مرتّبة بطريقة يتوسّط فيها المكان العلم سؤال المعرفة من جهة وصفات البلاء والتهدّم من جهة ثانية. فكان المكان العلم بهذه الوسطيّة يسهم في الإجابة عن سؤال المعرفة من جانب ويسهم في رفع صفات الفناء عن الطلل من جانب ثان. فكانت وظيفته إنشائيّة بامتياز.

وهو الأمر الذي يمكن أن يتجلّى في قول الأخطل في قصيدة مدحيّة قالها في عكرمة الفيّاض بقوله [من الكامل][41]:

"لِمَنْ الديَارُ بِحَائِلٍ فَوُعَالِ ** دَرَسَتْ وَغَيّرَهَا سِنُونٌ خَوَالِي؟

دَرَجَ البَوَارِحُ فَوْقَهَا فَتَنَكّرَتْ ** بُعْدَ الأنِيسِ مَعَارِفُ الأطْلالِ"

فيقف على الأطلال مستفهما عنْها. ويطرح سؤال **[لمن الديار؟]** ويطنب في وصفها[42] فجعلها متأثّرة بالرياح والأمطار. وبيْن الاستفهام والوصف يتنزّل المكان العلم **[وعال]** فكان الرابط بينهما من جانب والعنصر المثبت للجواب من جانب ثان. إنّ المكان العلم بهذا البعد اللغويّ يثبت أطلالا تظلّ بصفاتها أقرب إلى الامّحال وبالاستفهام أقرب إلى الاحتمال.

- المكان العلم ضد الوهم والاحتمال:

يقف المكان العلم ضدّ الوهم والاحتمال الذي يحتمله الطلل ويمكن أنْ يتجلّى ذلك في ما ينهض به المكان العلم **[إثبيت]** في قول جرير وهو يهجو الأخطل [من الطويل][43]:

"أَتَعْرَفُ أَمْ أُنْكِرْتَ أَطْلاَلُ * * بِإِثْبِيتَ فَالجَوْنَيْنِ بَالٍ جَدِيدُهَا"

فيطرح السؤال القائم على التصوّر باعتماد المعادل الموضوعي "**أمْ**" بيْن معرفة أطلال دمنة أو إنْكارها. فالمكان العلم **[إثبيت]** يتنزّل في الشقّ المقابل للإنْكار/"**أنكرت**" بينما يتنزّل البلاء مقابلا لـ"**عرفت**":

"**تعرف ======> بال جديدها**"

"**أنكرت ======> بإثبيت**"

فالمكان العلم **[إثبيت]** رفع أطلال دمنة من الإنكار **[بال جديدها]** إلى المعرفة **[بإثبيت]** فكانت وظيفة المكان العلم الإنشائيّة النهوض بتعريف الأطلال.

ويُبيّن جرير قيمة الأطلال التي لمْ يُخبّرْ أنّها قدْ درست وامّحت آثارها في قوله هاجيا الفرزدق[من الكامل][44]:

" لِمَنْ الديَارُ كَأنّهَا لَمْ تُحْلَلِ * * بَيْنَ الكِنَاسِ وَ بَيْنَ طَلْحِ الأعْزَلِ"

فـ**[الكناس]** إسم لموضع من بلاد غنى[45] و**[الأعزل]** واد لبني كليْب به ماء[46].

والشاعر استحضرهما في النصّ ليكْسبه أبعاده الإنشائيّة. فالأطلال التي **[كأنّها لم تحلل]** تظلّ في حاجة إلى إثبات. والإثبات يتحقّق بالتحديد الذي يضفيه عليها المكان العلم. فالأداة **[كأنّ]** وأداة الجزم **[لمْ]** في الصدر يجعلان وجود الأطلال في خانة الاحتمال، فيتنزّل العجز محتملا مكانيْن علميْن يدعمهما الظرف **[بيْن]** مكرّرا فيُرْفعُ الاحتمال ويتأكّدُ الوجود. فكان البيت بمصراعيْه حاملا لبناء متقابل بين احتمال النفي **[كأنّ– لم]** في الصدر والإثبات **[بيْن– بيْن]** في العجز:

الصدر	=\=	**العجز**
احتمال كأن + نفي: لم تحلل	=\=	**ظرف1إثبات: بين الكناس + ظرف2: بين الأعزل**

إنّ التقابل الذي غلب على بناء البيت الشعريّ إنشاءً يكشف عن جانبيْن من صفات **[الديار]** التي يُحتمل وجودها في الصدر ويتأكّد في العجز. وما وسيلة إثبات وجودها إنشائيّا في العجز إلاّ إغناؤها بمكانيْن عَلَمَيْن مشفوعيْن بالظرف المكرّر **[بيْن]**. فنهض المكان العلم بوظيفة إنشائيّة في النصّ تمثّلت في إثبات وجود الأطلال وفي بناء البيت الشعريّ بناءً طريفا. فكان المكان العلم ناهضا بوظيفته الإنشائيّة في النصّ.

- المكان العلم ضد الامّحاء والبلاء:

يتّصف الطلل بالعفاء والامّحاء فهو طلل دارس بال لكنّ الشاعر يربطه بضرورة الوقوف عليْه وإلقاء التحيّة. فيحتاج المعنى المكانَ العلمَ ليرفع حال العفاء ويؤسّس للتحيّة ويتجلّى ذلك في قصيدة جرير يهجو فيها سدوسا قائلا [من الوافر](47):

"**أَلاَ حَيِّ الديَارَ وَإِنْ تَعَفّتْ *** وَقَدْ ذَكَرْنَ عَهْدَكَ بِالخَمِيل** "

فاستدْعى مكانا علما **[الخميل]**(48) في سياق مكانيّ مسبوق بحرف جرّ "**بـ**" يدلّ على الغاية المكانيّة لكنّ هذا الحضور للمكان العلم قد سُبِق بالدعوة إلى تحيّة الديار**[ألا حيّ الديار]** وقد ذكرت عهدا. واللافت أنّ الإفادة المعنويّة في الجملة قد توسّطتها جملة اعتراضيّة **[وإن تعفّت]** تنزّل صفة الديار باعتبارها قد تعفّت... فافتراضها العفاء والامّحاء يقتضي ردّا حتّى يثبت التحيّة فكان سبيله إلى ذلك استدعاء المكان العلم **[الخميل]**. فكان المكان العلم بهذا الحضور ناهضا بوظيفته الدلاليّة في النصّ. وهو

الأمر الذي يتجلّى في قصيدة لجرير يهجو فيها الفرزدق ويعاتب جدّه الخطفي قائلا [من الطويل][(49)]:

"أَلاَحَيِّ رَهْبَى ثُمَّ حَيِّ المَطَالِيَا * فَقَدْ كَانَ مَأْنُوسًا فَأَصْبَحَ خَالِيَا**

فَلاَ عَهْدَ إِلاَّ أَنْ تُذَكِّرَ أَوْ تَـرَى * ثُمَامًا حَوَالَي مَنْصِبَ الخِيمِ بَالِيَا"**

فكان الشاعر يحضّ على تحيّة الطلل الذي حمل صفات متعدّدة تمثّلت في التحوّل الذي طرأ عليه فقد كان مأنوسا ثمّ صار خاليا، وقد كان خِيَمًا مأهولة وصار منصبا باليا يحوطه نبات ضعيف (ثمام)... واستدْعى لذلك مكانا علما **[رهبى]** فكان مؤسّسا لما أثّرت فيه صفات الطلل.

فاستطاع الشاعر أنْ يثبت بالمكان العلم وجود طلل طُمِسَتْ ملامحُهُ. وكانت وظيفته إنشائيّة تعلّقت ببناء النصّ ودلالته في آنٍ.

نخلص ممّا تقدّم إلى أنّ المكان العلم في القسم الطلليّ لمْ يكن دالاّ على واقعيّة الحدث ولا يمكن أنْ يمثّلَ أساسا تاريخيّا لحركة الطلل. إنّما كان يحْمل وظيفة استعاريّة تؤسّس دلالات النصّ الشعريّ. فكان المكان العلم ناهضا بإثبات الطلل في النصّ الذي كانت تقوم صفاته على تناظرٍ محوريٍّ بيْن علامات دافعة إلى الهلاك والبلاء والامّحاء بفعل الزمان أو العوامل الطبيعيّة أو صعوبة الإدْراك وبيْن مكان ثابت يجد له أساسا في ذات التقبّل وفي النصّ فيناظر العلامات الأولى ويحقّق الطلل ثباتا في النصّ وصدى عنْد المتقبّل. وفي التناظر بيْن المحوريْن نهوض بجماليّة النصّ الشعريّ. وتتأسّس للمكان العلم وظيفته الاستعاريّة التي تبعث دلالات جديدة وتستحدث حسّا أدبيّا فريدا لا يتشكّل إلاّ في النصّ الشعريّ.

- المكان العلم في قسم رحلة الظعائن:

يمثّل وصف رحلة الظعائن قسما رئيسا في القصيدة العربيّة القديمة وقد اعتنى الدرس النقديّ برحلة الظعائن ووظيفتها البنيويّة والدلاليّة[50] دون العناية بحضور المكان العلم فيها وما يمْكن أنْ ينْهض به من دلالات.

- المكان العلم يثبت الحال الوجدانيّة للشاعر:

يتنزّل المكان العلم في القسم الخاصّ بوصف رحلة الظعائن. فيثبت أحداثا وحالا وجدانيّة مثلما يتجلّى في مطلع قصيدة للفرزدق يهجو فيها جريرا قائلا [من الطويل][51]:

"أَلَمْ تَرَ أَنِّي يَوْمَ جَوِّ سُوَيْقَةَ * بَكَيْتُ فَنَادَتْنِي هُنَيْدَةُ مَالِيَا**

فَقُلْتُ لَهَا إِنَّ الْبُكَاءَ لَرَاحَةٌ * بِهِ يَشْتَفِي مَنْ ظَنَّ أَنْ لاَ تَلاَقِيَا"**

فاستدعى مكانيْن علمين يثبتهما ياقوت في معجمه وهما **[سويقة]**[52] و**[العقيق]**[53] فنهضا بأبعاد دلاليّة في النصّ. فربط **[سويقة]** بحدثين تمثّل الحدث الأوّل في حال الحزن والبكاء التي يعيشها ويتمثّل الحدث الثاني في مناداة <<هنيدة>> سائلة عن سبب حاله. لكنّ الوظيفة الدلاليّة تتشكّل عند افتتاح البيت بالاستفهام **[أَلَمْ تَرَ...؟]** فكان استفهاما منفيّا ينجز به المتكلّم تأكيدا لحاله الوجدانيّة المتوتّرة. وكان التأكيد مرتبطا بالمكان العلم...

فتعاضد الاستفهام المنفيّ مع المكان العلم المثبت للدلالة على حال الشاعر الذي يرى في بكائه راحة ويطلب من "هنيدة" وداعا في قوله [من الطويل][54]:

"قِفِي وَدِّعِينَا يَا هُنَيْدَةُ فَإِنَّنِي * أَرَى الركْبَ قَدْ شَامُوا العَقِيقَ اليَمَانِيَا"**

فربط بالتأكيد **[فإنّني]** على رؤية الركب في مسيره بمكان علم **[العقيق]**[55] ليزيد تأكيد فعل الرؤية إثباتا، رؤية الركب الذي قد شدّ الرحيل إلى وجهة البرق والمطر. فكان المكان العلم عاملا على إثبات حال الشاعر الوجدانيّة متماثلا مع الاستفهام

المنفي **[ألمْ تر]** في مرحلة أولى وعاملا على تأكيد الرؤية متماثلا مع التأكيد **[فإنّني]** في مرحلة ثانية.

فالمكان العلم يحضر في النصّ الشعري ليتماثل مع الدلالة في العمليّة الإنشائيّة. وقد يبدو الأمر جليّا في ما يذهب إليْه الأخطل في مخاطبته رجلا يعنيه <<ثور>> في قوْله [من البسيط](56):

"وَقَدْ أَقُولُ لِثَوْرٍ هَلْ تَرَى ظُعُنًا * يَحْدُو بِهِنَّ حَذَارَى مُشْفِقٍ شَنِقُ
كَأَنّهَا بِالرَحَى سُفُنٌ مُلَجّجَةٌ * أَوْ حَائِشٍ مِنْ جَوَاثَا نَاعِمٍ سُحُقُ
يَرْفَعُهَا الآلُ للتَالِي فَيُدْرِكُهُمْ * طَرْفُ حَدِيدٍ وَطَرْفٌ دُونَهَا غَدِقُ
حَتى لَحِقْنَ وَقَدْ زَالَ النهَارُ وَقَدْ * مَالَتْ لَهُنّ بِأعْلَى خَنِيفِ البُرَقُ"

فافتتح المطلع الخاصّ بوصف الظعائن باستفهامه للرجل الذي يعنيه <<ثور>> عن الظعن. ثم يطنب في وصف هذه الظعائن وما تركته في نفسه من حال حزن ويذكر **[الرحى]** و**[جواثا]** باعتبارها من المواضع العديدة التي مرّت بها القافلة. ويذكر فعل سراب الصحراء وتأثيره فيها. وبيْن التأثير في ذات الشاعر والتأثّر بحال الطريق وصحرائه يتنزّل المكان العلم رابطا بين الإخبار عن رحلة القافلة وبيان الحال الوجدانيّة للذات الشاعرة المتوتّرة.

ويتنزّل رحيل الظعائن مؤثّرا في الشاعر حين يصيبه من ترحالها الخبل في قصيدة لجرير(57) يهجو فيها الأخطل قائلا [من الكامل](58):

إنّ الظعَائِنَ يَوْمَ بُرْقَةَ عَاقِلٍ * قَدْ هِجْنَ ذَا خَبَلٍ فَزِدْنَ خَبَالاَ

فالشاعر يستدعي مكانا علما **[برقة عاقِلٍ]** الذي يحدّده ياقوت(59) لا ليثبت رحلة الظعائن إنّما ليبيّن فعل الظعائن في ذات الشاعر الذي بدا منفعلا يصف نفسه

بالخبل الذي هاجه رحيل القافلة فازداد خبالا. فالمكان العلم لا يثبت حدثا واقعيّا إنّما يثبت حالا وجدانيّة عند الشاعر.

ومن ثمّة كان المكان العلم مرتبطا بالمعنى الإنشائي في النصّ دون التعلّق بالخصائص الواقعيّة أو الجغرافيّة التي يمتلكها مسبقا. فكان بين حركة الظعائن والحال الوجدانيّة، وفي العلاقة بينهما ينهض بعمليّة إثبات فريدة تتأكّد دلالتها في قول جرير [من البسيط][60]:

إنّ الفُؤادَ مَعَ الظعْنِ التِي بَكَرَتْ * مِنْ ذِي طُلُوحٍ وَحَالَتْ دُونَهَا البُصَرُ**

ف**[البصر]** مكان علم يمثّل حسب ياقوت "**رملات من أسفل أود**"[61] يستدعيه الشاعر للدلالة على ما تركته الظعائن في نفسيّة الشاعر. فالظعائن التي رحلت مبكّرة رحل معها فؤاد الشاعر اشتياقا. وسرعان ما مرّت القافلة بأمكنة من **[ذي طلوح]** إلى أنْ صار **[البصر]** حائلا دونها. فكان المكان العلم فضلا عن كشفه للحال الوجدانيّة للشاعر مثبتا لسرعة رحلة الظعائن الراحلة بالحبيبة. وما يثيره ذلك في نفسه من شوق...

إنّ المكان العلم رغم اكتسابه سمات جغرافيّة يتنزّل في النصّ ليكشف عن حال وجدانيّة متوتّرة ويسعى إلى إثباتها في النصّ وإنْ كنّا لا نروم التنصيص على البعد الواقعيّ في النصّ لأنّ العمليّة الإنشائيّة تتجاوز الأبعاد الواقعية والامتداد الجغرافي للأمكنة رغم البعد الانعكاسيّ، وتظلّ منشدّة إلى مستويات وجدانيّة ذاتيّة تتصرّف في إنشاء النصّ كيفما شاءت. وفضلا عمّا يمكن أنْ يعكسه المكان من أبعاد وجدانية، يسهم في بناء المعنى في رحلة الظعائن وما يمكن أن تثيره في الذات المنشئة للنص.

– المكان العلم يثبت سرعة الظعائن ويسر تنقّلها:

يتنزّل المكان العلم في قسم الظعائن متداخلا مع المعنى الشعريّ إذْ يدلّ في صياغته على سرْعة الظعائن متجاوزة مرأى الشاعر فيزداد لوْعة وحزْنا شأن قول الأخطل [من الطويل](62):

فَلَمّا عَلَوْنَ الأرْضَ شَرْقِيّ مُعْتقٍ * طَرَحْنَ الحَصَى الحَمْضِيّ كلَّ مَكَانِ

يعتمد الشاعر أداة "**لمّا**" التي تفيد تلازم حدثيْن. تمثّل الحدث الأوّل في علوّ القافلة شرقيّ الأرض وتمثّل الحدث الثاني طَرْحَهَا الحصى في كلّ مكان دلالة على سرعة حركتها. واستدعى مكانا علما يثبت به مسار الظعائن. لكنّ هذا الإثبات يتنزّل في مستوى لغويّ محض. فالمكانان العلمان **[معتق]** الذي يحدّده ياقوت في معجمه باعتباره جبلا بعينه(63) و**[الحمض]** الوادي بالمنامة لا يتنزّلان بخصائصهما الواقعيّة في النصّ إنّما بدلالاتهما الإنشائيّة التي يُقدُّ وفْقها النصّ الشعريّ. فالمكان العلم كان مُسْهِمًا في إثبات حركة الظعائن وسرعتها مبتعدة عن رؤية الذات الشاعرة. والذي يؤكّد أنّ المكان العلم، رغم واقعيّته التي يثبتها أصحاب المعاجم الجغرافيّة، يظلّ خاليا من كل إيحاء واقعيّ حاملا لأبعاد دلاليّة متنوّعة في النصّ الشعريّ.

وكان وصف رحلة الظعائن في حدّ ذاته راجعا بالإنشاء إلى ذات الشاعر المنشئة المتوتّرة. وهذا البعد الوجداني يتماشى مع رحيل الحبيبة التي تتميّز ظعائنها بالإسراع وقدْ يضطرّ الشاعر إلى استدعاء المكان العلم لإثبات هذه الدلالات مثلما يتجلّى في مطلع مدْحيّة لجرير في عبد الملك بن مروان [من الوافر](64):

"أتَصْحُو أمْ فُؤَادَكَ غَير صَاحِ * عَشِيَّةَ هَمّ صَحْبُكَ بِالـروَاحِ

تَقُولُ العَاذِلاتُ عَلاَكَ شَيْبٌ * أَهَذَا الشيْبُ يَمْنَعُنِي مَرَاحِي؟

يُكَلِفُنِي فُؤَادِي مِنْ هَـواه * ظَعَائِنُ يَجْتَزِعْنَ عَلَى رُمَـاحِ

ظَعَائِنُ لَمْ يدنّ مَعَ النصَارَى * وَلاَ يَدْرِين مَا سَمَكُ القَـرَاحِ"

فيذكر رحيل الظعائن وما خلّفته في وجدانه منْ أثر ويبدي سرعة هذا الرحيل دالاّ بفعل **[يجتزعن]** مرتبطا بمكان علم **[رماح]** وهو موضع معروف يحدّده ياقوت في معجمه[65]. فكان ارتباط الفعل بالمكان العلم دالاّ على سرعة هذه الظعائن التي لا يعرفْن لبدويّتهن عمق الماء القراح.

ويبْدو جرير أكْثر تأثّرا في قوْله في قصيدة يهجو فيها الأخطل [من البسيط][66]:

كَأَنَّ أَحْدَاجَهُمْ تُحْدَى مُقَفِّيَةً * نَخْلٌ بِمَلْهَمَ أَوْ نَخْلٌ بِقَرَّانَا**

فيسْتدْعي الشاعر مكانيْن علميْن يتنزّلان حامليْن الشكّ في موضع الأحداج. فكان المكانان العلمان **[ملهم]** و**[قرّان]** ناهضيْن ببيان صعوبة تحديد هذه الأحداج لأنّ سرْعتها تجاوزت نظر الشاعر فعجز عنْ تحديد مسارها.

إنّ المكان العلم قد حضر في القسم الخاصّ برحلة الظعائن للنهوض بأبعاد شعريّة متنوّعة. فكان بعضها متعلّقا بالذات الشاعرة وبعضها متعلّقا بسرعة الظعائن.

أمّا ما تعلّق بالذات الشاعرة فارتبط بالحال الوجدانيّة وقد دلّ على الفؤاد الذي ترحّل مع القافلة واشْتَدَّ وجْدُهُ. وأمّا ما تعلّق بسرْعة الظعائن فإنّه يكشف عنْ أنّ مرأى الشاعر ظلّ عاجزا عنْ تحديد مسارها فيعود إلى فؤاده يحرّك فيه حُزْنًا دفينًا. لكنّ هذا الحزن وهذه الرواحل التي أسرعت في تجاوزها للشاعر تفتح مجال رحلة جديدة أمام الشاعر الذي سيجد في قصْده الممدوح سبيلا جديدا. فكانت رحلته تحمل صفات مختلفة يستدلّ على إثبات معانيها في أحايين كثيرة بالمكان العلم.

- المكان العلم في رحلة الشاعر إلى الممدوح:

لئن كانت الأمكنة الأعلام في رحلة الظعائن مؤثّرة في ذات الشاعر الذي يبدو ثابتا متوتّرا تقابله رحلة ظعائن الحبيبة متحرّكة مسرعة فإنّ الأمكنة الأعلام في رحلته تظلّ في خدمة معانٍ جديدةٍ لأنّ الشاعر في قصيدته قد تجاوز رحلة مسرعة تشتمل

طرقا سهلة إلى رحلة صعبة تتعثّر في الطريق وفاءً لممدوح يسعى إلى الإقبال عليْه. فبعد أنْ كان ثابتا مراقبا ظعائن الحبيبة تتجاوز نظره ومرآه صار يتجشّم صعاب الحركة في رحلة مخصوصة تبلوه بصعابها ويتجلّى ذلك في قصيدة الفرزدق مخاطبا راحلته يحثّها على المسير إلى الممدوح هشام بن عبد الملك قائلا [من الوافر](67):

"إلاَمَ تَلفتِينَ وَأَنْتِ تَحْتِـي ⁂ وَخَيْرُ الناسِ كُلّهُمْ أَمَامِـي

مَتَى تُرْدي الرصافة تَسْتَرِيحِي ⁂ مِنَ الأنسَاعِ والجَلْبِ الدوَامِي

ويُلْقَي الرحْلُ عَنْكِ وَتَسْتَغِيثِي ⁂ بِمَلْءِ الأَرْضِ وَالمَلك الهُمَامِ"

فكان في رحلته يتّخذ منْ راحلته مجالا للتعبير فيعدها بالراحة والأمان عنْد الممْدوح فلا حاجة للتلفّت إلى الوراء. ويرْبط وصول الناقة وراحتها بمكان علم **[الرصافة]** وهو مكان حدّده ياقوت في معْجمه(68) فكان يذْكر رصافة هشام وهو يخاطب الراحلة التي أنهكها السفر وبدتْ عاجزة عن الإسراع بحلم الشاعر سبيلا ليستحثّها للمسير السريع دون الالتفات إلى الوراء لأنّ الأمل عنْد هشام في رصافته. فكان المكان العلم سبيلا لرصْد صعوبة الرحلة منْ جهة حالة الناقة ولرصْدِ أمل الشاعر في ممْدوحه فِي آنٍ.

ويستدْعي الشاعر المكان العلم في سياق مخصوص يلائم المعنى الشعريّ مثْلما يتجلّى مع الفرزْدق حين يقول في قتْلِ وكيع بن حسّان قتيبةَ بن مسلم، مادِحا سليْمان بن عبد الملك، وهاجيا قيْسا وجريرا [من الطويل](69):

"تَحِنُّ بِزَوْرَاءِ المَدِينَةِ نَاقَتِـي ⁂ حَنِينَ عَجُولٍ تَرْكَبُ البَوَّ رَائِـمُ

وَيَا لَيْتَ زَوْرَاءَ المَدِينَةِ أَصْبَحَتْ ⁂ بِـأَحْفَارِ فَلْجٍ أَوْ بِسَيْفِ الكَوَاظِمِ"

فيشبّه ناقته في حنينها بالبقرة المطفل التي فقدت عجْلها. ويتمنّى تداخل الأمكنة بأنْ تحلّ **[زوْراء المدينة]** بـ**[أحفار فلج]** أوْ **[سيف الكواظم]**. وهي أمكنة أعلام يحدّدها ياقوت في معجمه(70).

لكنّ تداخلها بهذا الشكل ينْفي عنها البعد الواقعيّ الذي تثبته المعاجم ويجعله سليل ذات شاعرة متوتّرة أنْهكها تعب الرحلة ومشقّة الصعاب فلاقى حنينه حنين راحلته التي ظلّت في النصّ صوته المشبع بأمل ضياع المسافات وتداخل الأمكنة تجنّبا لصعوبة الرحلة ومشقّتها وإنْ كانت الرحلة في ظاهرها مادّيّةً إلاّ أنّ هذا التداخل للأمكنة الواقعيّة **[زوْراء–فلج–الكواظم]** المستحيل الوقوع والتوقّع يجعل الرحلة تحمل بعْدا رَمْزيّا. وما هذه الأمكنة الأعلام إلاّ إثبات للبعد الرمزيّ في النصّ الشعريّ.

ويُحاول الشاعر أنْ يسحب المشقّة على الراحلة متوسّلا بالمكان العلم مثل قول الفرزدق في قصيدة يهجو فيها جريرا ويفخر بمآثر قومه [من الطويل](71):

"بَدَأْنَا بِهَا مِنْ سيفِ رَمْلِ كُهَيْلَةٍ * وَفِيهَا نَشَاطٌ مِنْ مِرَاحٍ وَعَجْرَفُ**

فَمَا بَرِحَتْ حَتَّى تَقَارَبَ خَطْوُهَا * وَبَادَتْ ذُرَاهَا وَالمَنَاسِمُ رُعَّـفُ**

وَحَتَّى قَتَلْنَا الجَهْلَ عَنْهَا وَغُودِرَتْ * إِذَا مَا أُنِيخَتْ وَالمَدَامِـعُ ذُرّفُ "**

فجعل صعوبة الرحلة منعكسة على الراحلة، لكنّ الراحلة ما هي في نهاية المطاف إلاّ صوت الشاعر. وليُبيّن الشاعر تعب هذه الرواحل الموصوفة بـ**[المناسم الرعّف والمدامع الذرّف...]** استدْعى مسار الرحلة فانطلق منْ مكان علم **[كهيلة]** وهو حسب ياقوت "**موضع في بلاد تميم**"(72). لكنّ هذا المكان العلم لمْ يتنزّل بخصائصه الواقعيّة باعتباره موضعا في بلاد تميم ولمْ يكن في النصّ مكانا موصوفا يمثّل إطارا للحدث أوْ دافعا لعمليّة قصصيّة شأْن الأعمال القصصيّة والروائيّة(73)، إنّما تنزّل باعتباره دافعا لعمليّة إنشائيّة مختلفة يثبت فيها صفات للرواحل التي تكبّدت

مشاقّ الرحلة. فلمْ يكن المكان العلم موصوفا رغْم إحالته المعجميّة إلى الواقعيّ. إنّما كانت النوق هي المعنيّة بالوصف باعتبارها تمثّل صوت الشاعر وانعكاسا لذاته الشعريّة.

ويتنزّل المكان العلم في مواضع عديدة من الشعر القديم لوصف الناقة أو وصف الطريق الذي يسلكه في رحلته إلى الممْدوح. ويتجلّى ذلك في قول الأخطل(74) متحدّثا عن ناقته [من الكامل](75):

"وَلَقَدْ تَشُقُّ بِي الفَلاَةُ إِذَا طَفَتْ ٭٭٭ أَعْلاَمُهَا وَتَغَوَّلَتْ غُلْكُومُ

غُولُ النَجَاءِ كَأَنَّهَا مُتَوَجِّــسٌ ٭٭٭ بِالبِنَّتَيْن مُوَلَّعٌ مَوْشومُ"

فيصف في رحلته ناقته الملجمة المتميّزة بالسرعة والنجاء. وشبّهها بالثور الوحشيّ الخائف الحذر(متوجّس)... ويحدّد للتشبيه مكانا علما **[البنّتان]** فيتنزّل المكان العلم في موضع إنشائيّ مختلف في هذا الشاهد إذْ يبدو إطارا لعقْد المشابهة بيْن الناقة والثور، سواءً من خلال موضعه في الجملة اعتراضا أوْ من خلال سياقه الدلالي الذي يتجسّد منْ خلاله عقْد المشابهة. ويأخذ عقد المشابهة أبعادا أخرى في قصيدة لجرير يمدح فيها (76) أيّوبا بن عبد الملك قائلا [من البسيط](77):

كَيْفَ المَقَامُ بِهَا هَيْمَاءَ صَادِيَةً ٭٭٭ في الخِمس جهدٌ وَوِرْد السدس تنحيبُ

قَفْرًا تَشَابَهَ آجالُ النَّعام بِـهَا ٭٭٭ عيدًا تَلاقَتْ به قرانُ والنُّــوبُ

فيصف في رحلته الطريق وقد اشتدّ صعوبة. ويستدعي في عمليّة الوصف مكانيْن علمين لا لإثبات حدث شعريّ فحسب، إنّما لعقد تشبيه بيْن اجتماع آجال النعام في هذا القفر واجتماع لجبليْ، **[قران]**(78) و**[النوب]**(79). فكان المكان العلم في هذا الشاهد يحمل وظيفة إنشائيّة حبلى بالأبعاد المجازيّة المتشكّلة في عقْد التشبيه بيْن مشبّهيْن مستحيليْ التوقّع لأنّ الجبليْن مستحيلا الاجتماع.

إنّ رحلة الشاعر تتنزّل بيْن مفصليْن مهمّيْن في القصيدة [مفصل أوّل يركّز فيه على توتّر ذاته بعد رحيل الحبيبة] و[مفصل ثانٍ يُقْبِلُ فيه على ممدوح أهمّ يسْعى أنْ يثبت له صفات تحقّق له الرجاء] وبيْن المفصليْن تكون الرحلة الصعْبة كاشفةً للممدوح ما تجشّمه الشاعر منْ صعاب لبلوغ عطائه. وتستدْعي لإثبات هذه الصعوبة أمكنة أعلاما حاملة أبعادا شعريّة ووظائف دلاليّة فريدة.

لكنّ رغم أنّ أكثر حضور المكان العلم كان بقسميْ الطلل والرحلة بصنْفيْها رحلة الظعائن ورحلة الشاعر فإنّه يخْترق كامل القصيدة للنهوض بالبعد الوصفي أو ببناء الصورة البيانيّة. ويتنزّل في القصيدة للنهوض بغايات مدْحيّة.

- خاتمة:

حضر المكان العلم في قسميْ الطلل والرحلة ليحتمل دلالات متعدّدة أضحى من خلالها يحتمل اعتمالا إنشائيّا فريدا فتجاوز المكان العلم حدوده العلميّة وتشكّله الواقعيّ الموضوعيّ ليتداخل مع نسيج النص الداخليّ فتفاعل مع دلالاته وأغراضه وموضوعاته. وقد كان أكثر تجلّيه في مدونة الشعر القديم في قسميْ الطلل والرحلة بمستوييْها، الرحلة النابعة من النسيب المتعلّقة برحلة الحبيبة مفارقة مودّعة، والرحلة التي يتكبّدها الشاعر قاصدا الممدوح متجشّما الصعاب.

وكان الشاعر يروم في مختلف هذه الأقسام تأثيث فضاء شعريّ تتداخل فيه المستويات البيانيّة مع ما يستدعيه من أمكنة ومع ما يرومه من دلالات. فارتبط المكان العلم في قسم الطلل بسعي الشاعر إلى إثباته في وجه العوامل الطبيعيّة المؤثّرة وضد فعل التوهّم والاحتمال وصموده أمام الامّحاء والبلاء.

وارتبط في رحلة الظعائن بمشهديْن قابليْن للتناقض والتضادّ، مشهد الحبيبة راحلة مودّعة تاركة اللوعة والحسرة في قلب الشاعر مستسهلة الطريق ومشهد رحلة الشاعر يقصد ممدوحه متجشّما الصعاب يتوسّم فيه الخير والنعمة والرجاء.

الإحالات

1- ابن منظور، لسان العرب، دار صادر بيروت، الطبعة الثالثة 1414هـ- 1994م.مادّة [ع،م،ل]، ج11، ص475.

2- الفيروزآبادي (مجد الدين)،القاموس المحيط ،دار إحياء التراث العربي، [د.ت] باب الـ" نون"[فصل الميم]:ص517.

"والمَكانُ: المَوْضِعُ ج : أَمْكِنَةٌ وأماكِنُ."

3- ابن منظور، لسان العرب، مادة [م، ك، ن]،المجلد 13، ص412-415

"والدليل على أَن المَكانَ مَفْعَل أَنّ العرب لا تقول في معنى هو منِّي مَكانَ كذا وكذا إلا مَفْعَلَ كذا وكذا، بالنصب..."

4- ابن منظور، لسان العرب، مادة [م، ك، ن]،المجلد 13، ص412-415.

"والمَكانةُ المَنْزلة عند الملك. والجمع مَكاناتٌ، ولا يجمع جمع التكسير(...) والمكانُ الموضع، والجمع أَمْكِنة كقَذَال وأَقْذِلَةٍ، وأَماكِنُ جمع الجمع..."

5- ابن منظور، لسان العرب، مادة [م، ك، ن]،المجلد 13، ص412-415.

6- حسنين (أحمد طاهر)، ظرف المكان في النحو وطرق توظيفه في الشعر، سلسلة عيون المقالات العـ08ـدد 1987.

7- من المصنفات النقدية الجغرافيّة التي اهتمّت بالمكان وتوسّلت بمدوّنة شعريّة غزيرة:

- الحموي (ياقوت)، "معجم البلدان"،دار الكتاب العربي، بيروت، [د.ت.]

- الزمخشري (أبو القاسم)، "كتاب الجبال والأمكنة والمياه" تحقيق أحمد عبد التواب عوض المدرس بجامعة عين شمس، دار الفضيلة للنشر والتوزيع القاهرة 1319هـ - 1899 م.

– كراتشكوفسكي (أغناطيوس يوليانوفتش)، تاريخ الأدب الجغرافي العربي، نقله إلى العربية: صلاح الدين هاشم، قام بمراجعته: إيغور بليايف، الناشر: الإدارة الثقافية في جامعة الدول العربية، الطباعة: القاهرة. مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر 1963م.

– البكريّ، معجم ما استعجم من أسماء البلدان والمواضع، تحقيق مصطفى السقا، عالم الكتب، بيروت، [د.ت.].

– المرزوقي (أبو عليّ)، "الأزمنة والأمكنة في الشعر العربي"، ضبطه خليل منصور ، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان[د،ت.].

8- الجمحي (ابن سلاّم)، طبقات فحول الشعراء، تحقيق محمد شاكر، دار المعارف مصر (سلسلة ذخائر العرب). ج1 ص259

9- نفسه ج1، ص245.

10- ابن قتيبة، الشعر والشعراء، تحقيق محمد شاكر، دار المعارف، الطبعة الثانية، [د.ت]، ج1 ص 79.

11- الباقلاني (القاضي أبو بكر)، إعجاز القرآن، طبعة عالم الكتب،[د.ت]. ص156.

12-- عبد الحافظ (صلاح)، الزمان والمكان وأثرهما في حياة الشاعر الجاهلي وشعره، ط1 دار المعارف،1983.

13- نصير (ياسين)، "إشكاليّة المكان"- المقالات، عـ6ـ7ـدد، 1987، ص151.

14- عبد الرحمان (نصرت)، الصورة الفنية في الشعر الجاهلي في ضوء النقد الحديث، مكتبة الأقصى، عمان 1976.

15- نظيف (رشيد)،فضاء المتخيّل في الشعر الجاهلي، النشر والتوزيع المدارس، الطبعة الأولى 2000.

16-مشوّح(وليد)، مكّة و تجليات المكان في الشعر العربي
www.dahsha.com/old/viewarticle.php?id=28767

17- الفيّومي (سعيد محمد)، فلسفة المكان في المقدمة الطللية في الشعر الجاهلي، مجلة الجامعة الإسلامية (سلسلة الدراسات الإنسانية) المجلد الخامس عشر، يونيه 2007، العدد الثاني،ص 241 - ص 265 .

18- العجيمي (محمد الناصر)، الخطاب الوصفيّ في الشعر العربيّ القديم، الشعر الجاهلي أنموذجا، مركز النشر الجامعي (تونس) ومنشورات سعيدان سوسة جوان 2003.

19-Bachelard (Gaston), La poétique de l'espace, «Quadrige» PUF 4ème édition mars 1989

20 - Massabiau (Jaque pezeu), La maison, espace réglé espace rêvé, Reclus Gip. 1993.

21 -Françoise (Lartillot),Le lieu commun du moi ; identité poétique dans l'œuvre d'Ernest Meistre (1911-1979) ,Berlin, Frankfurt : Lang 1998.

22-Née (Patrick), Poétique de lieu dans l'œuvre d' Yves Bonnefoy ou Moise sauvé, P.U.F. 1ere édition, avril 1999.

23 -Ghitti (Jean Marc), La parole etle lieu Topique de l'inspiration, les éditions de minuit, Paris 1998.

24 - Claval (Paul), Espace et Pouvoir, Presses Universitaire de France.

25 - Bachelard (Gaston), La poétique de l'espace, p59.

La rêverie revient habiter le dessin exact. La représentation d'une maison ne laisse pas longtemps un rêveur indifférent »

26 - Massabiau (Jaque pezeu), La maison, espace réglé espace rêvé, Reclus Gip. 1993.

27 -Blanchot (Maurice), L'espace littéraire, Gallimard, 1988

28- قاسم (سيزا) مشكلات المكان الفني .جماليات المكان، الطبعة الثانية دار قرطبة الدار البيضاء1988. ص59.

29- Lotman (Youri), Structure du texte artistique, Trade France- Anne fournier et autres- éd- Gallimard - 1973.

30- Ibid, p313.

31- الفرزدق، الديوان، طبعة دار صادر، بيروت، [د.ت].

32- الأخطل، الديوان، شرح محمّد مهدي ناصر الدين،ط1، دار الكتب العلميّة، بيروت، 1986.

33- جرير، الديوان، طبعة دار صادر، بيروت، [د.ت].

34- الفرزدق، الديوان، ج1، ص484.

- الحموي (ياقوت)، معجم البلدان، ج2ص310.

35- جرير، الديوان، ص611.

36- الحموي (ياقوت)، معجم البلدان، ج1، ص271.

37- نفسه ج1، ص271.

38- جرير، الديوان، ص616.

- الحموي (ياقوت)، معجم البلدان، ج1، ص399.

39- الأخطل: الديوان، ص348.

- الحموي (ياقوت)، معجم البلدان، ج2، ص113

40- الحموي (ياقوت)، معجم البلدان، ج2، ص113

41- الأخطل، الديوان، ص25 الحموي (ياقوت)، معجم البلدان، ج5 ص379.

42- الأخطل، الديوان، ص255.

43- جرير، الديوان، ص124.

44- جرير، الديوان، ص533.

45- الحموي (ياقوت)، معجم البلدان، ج2، ص221.

46- نفسه، ج2، ص221.

47- جرير، الديوان، ص 524.

48- الحموي (ياقوت)، معجم البلدان، ج2، ص390.

49- جرير، الديوان، ص760.

- الحموي (ياقوت)، معجم البلدان، ج3، ص107.

50- خليف (ميّ يوسف)، القصيدة الجاهليّة في المفضّليّات (دراسة موضوعية وفنية)، الفصل الثالث ص ص201-222.

51- الفرزدق، الديوان، ص653.يعتبر الشارح هذه القصيدة أوّل قصيدة يهجو فيها الفرزدق جريرا والبعيث.

52- الحموي (ياقوت)،معجم البلدان، ج3،ص286-287.

53-نفسه، ج4، ص140.

54- الفرزدق، الديوان، ص653،

55- الحموي (ياقوت)،معجم البلدان، مادة [ع،ق،ق]، ج4، ص140.

56-الأخطل، الديوان، ص210. المقطع من قصيدة في مدح مسلم بن زياد [من البسيط]:

57- جرير، الديوان، ص360. مطلع القصيدة [من الكامل]

58- نفسه، ص360.

59- ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج1،ص 396.

60- جرير، الديوان، ص196.

61-الحموي(ياقوت)، معجم البلدان، ج1ص430.

62- الأخطل، الديوان، ص340.

63- الحموي(ياقوت)، معجم البلدان، ج5 ص154.

64-جرير، الديوان، ص76.

65-الحموي(ياقوت)، معجم البلدان، ج3،ص66.

66- جرير، الديوان، ص493. في قصيدة مطلعها [من البسيط]:

"بان الخليط ولو طوّعت ما بانا *** وقطعوا من حبال الوصل أقرانا

حيّ المنازل إذْ لانبتغي بـدلا *** بالدار دارا ولا الجيران جيرانا"

الحموي(ياقوت)، معجم البلدان، ج4، ص319.

67- الفرزدق، اليوان، ص449.
68-ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج3 ص47.
69- الفرزدق، الديوان، ج2، ص616.
70- ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج3 ص156.
71- الفرزدق، اليوان، ص386.
72- ياقوت الحموي، معجم البلدان،ج4 ص496
73-Jallat (Janine), Lieux balzaciens, Poétique, 64. P104.
74- الأخطل، الديوان، ص303قصيدة مطلعها [من الكامل]:
صَرَمَتْ أُمَامَةُ حَبْلَهَا وَرَعُومُ وَبَدَا المَجَمْجَمَ مِنْهَا المكتومُ
لِلْبَيْنِ مِنَّا وَاخْتِيَارِ سَـوَائِنَا وَلَقَدْ عَلِمْتِ لَغَيرُ ذَاكَ أَرُومُ
75- نفسه ص 304.
76- جرير ، الديوان، ص36 قصيدة مطلعها [من البسيط]:
"هَلْ يَنفَعَنَّكَ إنْ جَرَّبْتَ تَجْرِيـبُ أَمْ هَلْ شَبَابُكَ بعد الشيبِ مطلوبُ
أمْ كلّمتكَ بسُلمانِينَ منــزلةٌ يا منزل الحيِّ جادتك الأهَاضِيبُ"
77- نفسه، ص36.
78- الحموي (ياقوت)، معجم البلدان، ج 4 ص145.
79- نفسه، ج 5 ص182.